قهوة الياسمين
بقلم
مريم شعبان

قهوة الياسمين
بقلم
مريم شعبان

سطور من حياة

مريم صالح شعبان

* من مواليد سوريا وتحديدًا دمشق أو كما أُفضِّل أن أكنيها الشام، من مواليد ١٩٩٣م.. درست التاريخ في جامعة دمشق .

* بدأت القراءة بسن صغير بين خبايا مكتبة والدي وقصصه التي خطَّها بيده ولكنها لم ترى النور للنشر .. لم أحلم بالنشر من قبل حتى قرأت للرائع أحمد خيري العمري .. وجدت به ضالتي .. كلماته تترسخ في روحي .. حلمت أن أكون مثله يومًا ما .. ألتقي به .. أسمع ثنائه.

* ليبدأ مشواري الكتابي مع عدد من القصص الإلكترونية التي تحوَّلت بعد مدة لمشاركات ورقية والاستقلال بمجموعة قصصية خاصة بي باللغة التركية تحت عنوان *SAVAŞIN GÖLGESiNDE* (ظلال الحرب) وتلتها مشاركة أخرى لي في عروس العرب القاهرة في مجموعة "العازفون على أوتار الكلمات".

* ويعود سبب ذلك للمُبدعة فاطمة عمارة التي كانت لي

كالسراج الذي أضاء درب اللجوء المتخبطة به .. تمد لي العون في كل مرة أحتاجه..لتزرع في مبدأ أنني حاملة لرسالة يجب أن أوصلها لكل شخص قُدِّر له أن يقرأ كلماتي.

* كوني سورية حلمت أن أحمل رسالة توضح هويتي.. رسالة عن بلدي.. عن كل إنسان عانى في بلدي.. أحمل شغفي الدمشقي... رائحة ياسمين بلادي.. شموخ قاسيون.. لأوصلها بأمانة وبصورة جميلة..

* وها أنا اليوم أتابع الخطى على طريق حلمي لمشاركات أدبية أخرى علَّها تكون رصيد إيجابي في حياتي ككاتبة مبتدئة تسعى للتعمق أكثر في بحر الكتابة وخباياها.

* للتواصل معي عبر موقع التواصل الاجتماعي فيسبوك:

"قهر الياسمين"

دخلت الصف وهي تطلق زفير قوي ينم عن توترها فاليوم قرَّرت أن تحكي لطلابها تلك القصة التي وعدتهم بقصَّها إن كانت درجاتهم جيدة وحان وقت تنفيذ الوعد.. ابتسمت للجميع المتأهبين كما كانت متوقعة لتتأمل وجوه طلَّابها بحب والماضي يتدفق لعقلها فتبدأ في الحديث دون أي مقدمات.

عندما تُغطي رائحة الموت الأرض والسماء وينتشر الألم...في كل زاوية تشتم رائحته..تشعر به حولك...يختلط الياسمين مع الدم...ينعجن الخبز مع الموت فتكون المآساة كبيرة، هذا يحدث في بلد تعيش الحرب منذ سنوات، تذوق المرارة في كل ثانية، تتجرَّع الأسى كل يوم.

(استيقظي بسرعة يا ياسمين) نهضت بسرعة وكأن أفعى لسعتها (هل بدأ القصف أمي؟) أومأت لها أمها بأسى وخرجت مسرعة من غرفتها ولتلحق بها تلك الفتاة تاركة كل شيء في مكانه كتبها، غطائها، وأحلامها كانت تركض بسرعة بين الناس وصوت القصف لا يهدأ فوقها، وفي كل مرة صوت يختلف عن الآخر...

تارة خفيف وبعيد وتارة يصبح أقوى وكأن الأرض تتزلزل..

في كل مرة يكون فيها الصوت أقوى ترى الناس تجمَّدوا والهدوء سيطر عليهم حتى تمر ثوانٌ ويعود كل شيء كما هو، الناس تركض من جديد، أم تحمل ابنها وهي تبكي، وذلك الرجل يمسك يد طفلته والنوم غالب عليها، وشاب يحاول مساعدتهم للوصول إلى الملجأ، كان الليل قد انتصف ولكن السماء مضاءة ليس بضوء القمر بل بتلك القنابل التي تسمى ضوئية...

نظرت ياسمين للسماء لترى أحد تلك القنابل تمر فوقها وهي تتمتم بخفوت (ألا يكفيهم القذائف العشوائية بل يريدون أن يعرفوا أين نحن أيضًا؟!).

نظرت بجانبها تريد أن تعرف هل خرج كل أهلها لكنها لم تجد سوى والدتها، حاولت الحديث لتسأل عن الباقي لكنها التزمت الصمت فقد حذَّرها والدها من التحدث أثناء إنتقالهم للملجأ حتى لا تثير أنظار الجميع أو تزرع القلق في قلوب من يتجهون نحوه.

كان المكان قريبًا جدًا من بيتها ذلك كما يطلق عليه أهل الحي ولكنه في الواقع لم يكن سوى طابق أرضي لأحد الأبنية العالية في البلدة التي غرقت بين الحطام ففي كل زاوية حائط في

الأرض.. حتى أعمدة الإنارة كانت مائلة والأتربة في كل زاوية وطبعًا الكهرباء معدومة عن الوجود.

اقتربت من الملجأ المكتظ بالناس.. وهي تسأل نفسها(ماذا لو كان هذا البناء هدف في يومٍ ما؟، ماذا سيحل بالجميع؟هل سيموتون تحت الركام هل سيجدون من يدفنهم..أو حتى يجمع أشلائهم؟)

سارت باتجاه باب القبو وما إن وضعت قدمها على أولى الدرجات حتى هزَّ المكان صوت قوي...صوت أفزع القلوب وجعلها ترتجف لقد كانت القذيفة قريبة جدًا منهم..تكاد تقسم أن الدرج اهتز من تحتها، نزلت على ركبتيها تُغطِّي رأسها بيديها من الخوف، لقد كان الصوت مرعب والأكثر رعبًا كان صوت الأسلاك الكهربائية التي من المؤكد أنها قد قُطعت فالضوء أصبح خافتًا وينذر بالانقطاع.

ولكن ماهو أقسى وأكثر وجعًا هو صوت بكاء الأطفال الذي عمَّ المكان..

تجلس مكانها بخوف ورعب وأصوات كثيرة تمر على رأسها، صوت الطائرة التي تدوي في السماء وأسلاك الكهرباء وبكاء الأطفال كلها تدور في رأسها كالدوَّامات.. حتى شعرت

أنها على وشك الإغماء من الخوف والتوتر، ولكن فجأة توقَّف كل شيء حين سمعت أحد الشباب يتكلم بصوتٍ عالٍ (هيَّا إلى الداخل بسرعة).

شعرت به يقترب منها يهزَّها بقوة حتى تعود للواقع ويصرخ بها(يا آنسة يا آنسة) وكأنها كانت في عالم آخر نظرت له برعب ولكنَّه ابتسم لها بثقة وهو يقول (مرَّ الأمر بسلام...القذيفة كانت قريبة، ولكنها لم تسبِّب أي خسائر...هيَّا إلى الأسفل).

هزَّت ياسمين رأسها بصمت ونهضت لتذهب حيث الناس تجتمع...لقد كان قبوٌ باردٌ جدًا عبارة عن غرفة كبيرة خالية من أي شي ماعدا مصباح صغير في نصف الغرفة، ذلك الضوء لم يكن مفيدًا أبدًا بل العكس لقد زاد الجو توترًا فطوال الوقت وهو يهتز ينطفئ لثانية ويعود للإضاءة وكأنها في غرفة تحقيق ، لقد كان موترًا جدًا ..

نظرت حولها تحاول أن تجمع شتات نفسها بعد الذي حدث منذ قليل، لقد كان المكان مليء بالبشر شيوخ ، ونساء، وأطفال، وبعض الرجال، ترى جارتها تجلس في زاوية الغرفة تحمل صغيرتها التي تبكي.. وامرأة كبيرة في السن تبكي بصمت،

ورجل مصاب في يده يتكأ على باب الملجأ.. أطفال كثر لطَّخت وجوههم الدموع والرعب.

كان هناك شاب يحمل سيجارة بيده وقدمه مربوطة بكثير من الأربطة بدا لها كأنه مصاب من قبل نظراته معلقة بالسقف ويبدو أنه يقول شيئًا ما لتركز سمعها والفضول يتلبَّسها لتعرف ما يقول (مآذنُ الشّامِ تبكي إذ تعانقني وللمآذن أرواحُ كالأشجارِ)

مسحت دموعها بطرف يديها وكلماته تنساب بين أوردتها وتنحفر في قلبها كالوشم لتنظر للطرف الأخر محاولة أن توقف دموعها لترى ذلك العجوزالذي تعرفه مسبقًا فهو مؤذن الجامع(هل زاد الشيب في رأسه أم أنها تتخيل ذلك؟) اقتربت منه وجلست أمامه القرفصاء كما يفعل هو لقد سمعته يردِّد بعض الكلمات بخفوت لم تفهمها كلها ولكنها عرفت أنه يتلو أدعية وبعض الآيات..

استجمعت قوتها وسألته (هل أنت بخير يا شيخ؟)

نظر لها بابتسامة سمحة: (نعم بخير وأنتِ؟) عادت للنظر إلى المكان تحاول أن تعرف إن كان خيرًا أو لا، ولكنها أجابت (أظن ذلك) كانت تتأمل الوجوه التي كساها الموت، لقد كانوا أحياء نعم، ولكن في الحقيقة لقد كانت وجوههم ميتة خالية من

الحياة...أرواحهم هائمة ضائعة وكأنهم يقولون للموت نحن على استعداد لك في أي وقت، (لقد فقدت زوجتي)..نظرت بصدمة نحو الشيخ ولكنها لم تتحدث حتى أكمل هو: (لقد فقدت زوجتي منذ قليل.. كانت القذيفة قريبة جدًا من بيتي وأصيبت.. لقد رأيتها تموت أمام ناظري والدماء تغطَّي وجهها تنظر إليَّ وتبتسم.. لم أكن قادرًا على الاقتراب منها بسبب القصف العنيف.. لم يسمحوا لي أن أودِّعها خوفًا على حياتي..أخذوها مني قبل أن أخبرها بأن سنوات حياتي كانت أفضل بسببها..أنني أحبها..أنني أشكرها على كل شيء قدَّمته لي في هذه الحياة).

كان يبكي مع كل كلمة يقولها.. رجل في الستين من عمره لطالما عُرِف بالوقار والرزانة، أما الآن فقد رباطة جأشه وانهارت دفاعته وكأنه طفل صغير فقد أمه، وهي كانت تبكي معه، كانت تريد مواساته ولكنها عجزت، تريد أن تقول له الكثير والكثير ولكن حروف اللغة اختفت والكلام اختفى.

وكأنه قرأ أفكارها فقد نظر إليها ليمسح دموعه ويُغطي فمه بيديه ليقول بصوتٍ شبه باكٍ: (لا بأس يا ابنتي، لا تتعبي نفسك بالكلام أنا أعلم أن هذا حال الكثيرين من أبناء بلدي وزوجتي

ليست الأولى ولن تكون الأخيرة، وهذه هي الحرب تأخذ منا كل غالي وتتركنا وحدنا نجابه غيابهم، فالحرب ببساطة تسرق الأجساد والأرواح، تؤذي الميت والحي، حتى أن أذاها على الأحياء أكبر وأشد قسوة من الأموات، فنعاني من فقدانهم، دموعنا لا تجف أبدًا، نعيش في ترقُّب كل ثانية، هل سنكون الضحية القادمة أم سنكون من يفقد غالي أخر؟؟)

أومأت بصمت وهي تجيبه (معك حق..لقد أخذت الحرب مني أحلامي وسنين صباي..ربَّما هي لم تؤذني جسديًا ولكن أحلامي تبخَّرت مع دخان المدافع، ابتسامتي سرقها أزيز الطائرات، هي الحرب ببساطة.)

كانت تذكر كل حلم حلمت به، مدرستها ألعابها وحتى ضحكاتها.. رغبتها في أن تصبح معلمة والآن هي لم ترى مدرستها منذ شهرين تقريبًا.. صديقتها التي توفيت بسبب القصف في أحد الأيام.. وتلك اللعبة التي اشتراها والدها لها فأصبح مصيرها تحت الركام لأن بيت جدها وقع وأصبح سراب، صوت أخر هزَّ المكان تلاه عدة أصوات بعيدة أخرجها من أفكارها بخسائرها الشخصية لقد كان القصف هذه المرة أعنف، ولكن ما لفت انتباه الجميع هو الصراخ في الخارج (لدينا مصاب).

هذه الكلمة رسمت الرعب على وجوه الكثير من النساء فهناك مصاب فوق لا أحد يعلم من هو، من هي الضحية الجديدة؟ هل سيكون من ضمن فاتورة الحرب العالية، أم أنه سيكون من سعداء الحظ وتكتفي الحرب بسرقة جزء من جسده ربَّما يده أو قدمه وفي أحسن الأحوال ستكون إصابة خفيفة.

تصاعد بكاء أحد السيدات والجميع التفت إليها حتى سألتها واحدة منهن(لماذا تبكي؟) أجابت ببكاء (إنه زوجي..ربَّما هو المصاب لقد قال لي إنه سيبقى فوق ليساعد المصابين...يا إلهي زوجي) وعادت للبكاء من جديد بصورة أقوى.

حتى اقتربت منها امرأة كبيرة في السن وقالت لها بثقة وإيمان كبيرين: (اهدئي يا فتاة.. ربَّما يكون بخير، توقَّفي عن البكاء الآن، لديَّ ثلاثة أبناء في الخارج أحدهم كان مصاب منذ فترة بسيطة ولم أستطع منعه من البقاء خارجًا)

أجابتها المرأة الصغيرة بدموع: (لكن..)

عادت العجوز لتقول لها وهي تجرها من يدها لتجلس (من دون لكن، كل ما عليكِ فعله الآن هو الدعاء لهم).

عاد القصف من جديد مما جعل الناس تصمت بترقب هل

ستكون القذيفة القادمة قريبة أو بعيدة، هل سيكون هناك ضحايا جدد، أم أن القذيفة ستكتفي بالأبنية والحارات لتسرق جمالها.

لحسن الحظ كان المكان بعيد عنهم ولكن هل هو بعيد عن غيرهم لا أحد يعلم.

كانت تراقب الجميع بصمت وذلك الشاب الذي ما زال يتمتم بالشعر ونقاش النساء من حولها تارة يزرع فيها القوة وتارات الضعف والخوف لتقترب من الشيخ تحدِّثه بخفوت وكأنها تسأله سرًا (هل الموت مرعب؟ أم أن الحياة أشد رعبًا؟)

تابع الشيخ نظره للضوء المهتز وكأنه لم يسمعها ولكنها كانت متيقنة أنه سمعها فبعد صمت ثوانٍ أجابها: (حين تكون الحياة موجعة، القهرعنوانها والبكاء ميزتها، حين تكون الروح مُتألمة والوجوه تنذر بالموت في كل ثانية، الأرض تنزف والسماء تصرخ على حالنا، فالحياة عندها تكون أشدَّ رعبًا)

سألته مرة أخرى: (ولكن ما دمنا على قيد الحياة فالأمل موجود أليس كذلك؟)

هزَّ رأسه بموافقة على كلماتها (ما دمنا على يقين بأن الغمامة سوف تنقشع عندها الحياة تستحق المغامرة).

ارتسمت الثقة على محياها نعم فهو محق.. اليقين والإيمان هما ما ينقصنا في هذه الحالة، ربَّما الموت قوي ولكن الإيمان أقوى منه، ربَّما الموت جشع لكن تماسك الإنسان ينتصر على جشعه.

تذكَّرت كلام الشيخ عن زوجته وتلك العجوزعن أبنائها فازدادت ابتسامتها ثقة بأن الموت سيخسر هذه المعركة هنا، فهؤلاء الأشخاص أمثالهم كثر وبهم سوف يفوزون على الحرب.

أخرجها كلام الشيخ من خضم أفكارها عندما سألها:(بالمناسبة ما هو اسمكِ يا صغيرة؟)

ابتسمت له: (ياسمين).

هزَّ رأسه بتفهم وكرَّر اسمها (ياسمين..لقد أخذتي أجمل اسم في هذا الكون).

سألت ببلاهة: (أجمل اسم؟!)

أومأ لها: (نعم، أجمل اسم، لقد اختصرتِ سوريا كلها باسمك.. لقد عُرِفت على مر العصور بهذا الإسم، سوريا والياسمين لا يفترقان.. هي كالياسمين بنقائها، لقد عُرِف الياسمين ببياضه الناصع ورائحته التي تمس شغاف القلب، وشكله الذي يسكن الروح، وهكذا هي بلدنا تسكن الروح وتغزو القلب).

نظرت له بانبهار:(هذه أول مرة أسمع وصف بديع كهذا!).

أكمل لها الشيخ: (وأنتِ يا ابنتي كوني مثل الياسمين، لا تنطفئ روحكِ مهما حدث، كوني مثل سوريا شامخة مهما عصفت بكِ الحياة).

أجابته بثقة كبيرة: (بإذن الله).

سمعت صوت أحد الشبان يصرخ:(لقد توقف القصف).

لقد هدأ القصف فعلًا ونهار جديد يلوح في الأفق، ولكن إلى متى سيتوقف القصف؟ لا تعلم، إلى متى سوف يستمر هذا الحال؟ لا تعرف، كل الذي تعرفه الآن أن هذا الشيخ بثَّ فيها روح جديدة، روحًا مقاتلة سوف تسعى للحصول على كل ما فقدته وها هي الآن تقف بين طلَّابها لقد حقَّقت حلمها وأصبحت معلمة والآن تحكي قصتها لهم فرغم القصف والدمار، رغم الوجع والموت، كانت كالياسمينة الشامية، قوية، مقاتلة، جميلة، مُبهرة.

تمَّت بفضل الله

رسالة إلى مجهول

عزيزي المجهول..تحيَّة طيبة..

وأمَّا بعد..

إليك مني أرق تحيَّة يامن تقرأ كلماتي.. ربَّما أكون أخر شخص يحق له التحدث عن التفاؤل ولكنني مازلت متمسكة به حتى الرمق الأخير.

فبعد أن سُلخت عن بلدي عن شامي وبيتي فأصبحت لاجئة في الأردن انتقالًا للعراق وصولًا لتركيا فأخسر سبع عجاف من حياتي..خسرت فيهم دراستي فتوقَّفت عنها قبل أن أحمل شهادة تخرجي وأُكمل حلمي وخسرت معها شبابي لأشعر أنني كعجوز في عمر العشرين..

كانت تلك الأيام كالعلقم في طعمها والكحل في سوادها ولكنها مضت ومازالت تمضي لأجد نفسي غارقة في بحر الروايات والكتب التي كبرت عليها ولكنني أهملتها في خوضي معركة مع الحرب في بلدي وفي نفسي.. لأعيش من جديد الشغف

الذي فقدته..لأضحك وأنا أدفن الألم في القاع فأجد نفسي أخوض معركة جديدة.. أترجم خوفي من الحرب على الورق أصف ما أشعر به وما أرغب به بين القصص.. لتخط يداي أول قصة لي وتتبعها غيرها وغيرها لأصل للنشر الورقي فأصنع طريق جديد عليَّ.. أعوض فيه خساراتي.. أتحدث به عن نفسي.. عن مشاعري..أحزاني وأفراحي فيقرأه غيري ويشعر بما أعيش، لينطبق عليَّ ما قاله المبدع "أحمد خيري العمري" (ما دمنا نعاني بكل الأحوال، فلنجعل لمعاناتنا معنى).

وهكذا يا صديقي فعلت عانيت بما فيه الكفاية فقرَّرت أن أنقل معاناتي فأشعر أنني انتصرت على الحرب..قتلت وجعي بكلماتي.

وتأكدت أن كل شيء سيء يحدث لنا يتبعه شيء جيد يمحي مرارة سوءه ويجعله ذكرى مرَّت وانتهت.

أرجوك يا من تقرأ كلماتي لا تجعل لليأس مكان في حياتك، انهض وأفرغ حمولتك فيما تحب..اصنع من وجعك إبداعًا

محبّتي الأبديّة

المُخلصة

مريم شعبان